

وشمرت وهذه لك كريات

تدري على غيلقي بشمور مبهم  
مختلط... شعور من يعود فجأة  
وبلا إنذار إلى ماضيه، ليحيا في  
بعض أيامه مرة ثانية، ويذبل  
تراب النسيان عما سلف من  
حوادثه.

كانت تلك المرأة يوم عرفتها

في الأربعين من عمرها، وإن كانت تبدو في الخمسين،  
ذات جسد مهديم، ووجه ذابل تظهر في أضعافه  
آثار جال تولى، وكان أعجب ما فيها بسمه وهبتها  
لها الطبيعة، بسمه ذاهلة حائرة لم تكن تخفى عن  
شفتيها إلا قليلاً، وعيون ضيقة زاوية تفصح أعمقها  
عن الداء الرهيب الذي ورثته هذه المرأة عن أسرتها،  
وداء الجنون واللعنة!

ولم يكن لها زوج، كلاب كان لها هذا الزوج  
وتوفي بعد أعوام قليلة من معاشرته لها، ولكن  
كانت لها ابنة، ابنة في سن العشرين أو تزيد حلت  
ضيافة على المارستان منذ بلغت سن الثانية عشرة.  
وكان أكبر ما أدهشني مما عرفت عن هذه  
المرأة، أنها تشرب الخمر، وتضع منزلها كل مدة ما  
تحت تصرف رجل تجتذبه إليها بما لها ليماسرها فيه  
معاشرة الزوج وزوجته دون أن تربطهما رابطة زواج  
شرعي. حتى إذا شبت من معاشرته نبذته ليأتي  
دور رجل غيره...

وكانما خلق الله هذه المرأة مجموعة من التناقضات  
والمجانب، وكانما وضع فيها أشنع صفات مخلوقاته،  
وأقذر غرائز المرأة وأخلاقها، وأشد طباعها.  
وكنت في تلك الأثناء التي عرفت فيها أسمع

# ذِكْرُ امْرَأَةٍ

أَقْصُوصَةٌ فَضْلِيَّةٌ  
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ عَبْدِ الْحَكِيمِ الْعَشِيرِيِّ

ما أحسبني كنت أذكرها بعد ذلك للنسيان  
للطويل، لو لم أسمع في تلك القرية النائية من قري  
مصر، وفي تلك الأمسية الساجية من أمسيات  
الريف الفارق أبداً في الهدوء، هذا الرجل الريفى  
وهو بنى في صوت حزين (الموال) الشهور المنتشر  
بين جل أهل الريف الذى مطلعته:

«يا ميم بالي بلا خال تمال اعملك خالى»

«واحط قابي اللان على قلبك الخالى»

لقد كان ذلك (الموال) وهذا الرجل بفتنه  
يميد إلى ذهني ضروبا من الذكريات متباعدة مختلطة،  
إذ كان يرتبط بشيء نسيته منذ زمن بعيد، بقصة  
امرأة عجيبه ماتت كنت أسممها تغنيه حينما كانت  
تعيش...

لم يكن الصوت القديم، صوت تلك المرأة  
وهي تغنى ذلك (الموال)، قد بقى منه في أذني  
سوى أثره العاقى، ورغم ذلك فقد جدد صوت  
الرجل الريفى وهو يردد ويرجع (مواله). فعدت  
أسمم من جديد بكل ما كان فيه، بنبراته الباكية  
الكثيرة، وأنغامه المضطربة الناعمة، وكان كلما تجدد  
في أذنى جدد معه ذكريات تلك الحفنة من حياتي  
التي عشتها وهذه المرأة تعيش وأراها وأسمع عنها.

أولى الشأن في هذا الشأن .

وقابلت هذه المرأة يوماً ، فرحت أنصحبها بترك  
البحر وهجر الطيش ، فنظرت إلى بعينين نفذت  
نظرتيها إلى أعماق وقالت ساخرة :

— عشنا لنرى أولادنا يشمخوننا ، يا صغيري  
المعز احتفظ لنفسك بهذه النصائح اللطيفة . وظلت  
على طيشها وجنونها بل تبادت فيهما .

وفي ذات مساء شهدتها وهي تتخلص من رجل  
كان يماشرها وتعاشره قلته ، كانت تقول له وهو  
جالس القرفصاء في ركن من أركان إحدى غرف  
منزلها الصغير ، وعلى وجهه دلائل الخوف ، وفي  
عينيه وميض الشقاء المقبل الذي سيمود إليه بعد  
أن استمتع بحلاوة الحياة ونعيمها وراحها بجوار  
هذه المرأة .

— في صباح اللند يجب أن تجمع ثيابك وأطفلي  
الفر ، ونذهب إلى حيائك التي انزعجت منها مدة ما  
فلن أستطيع أن أوبك أكثر من ذلك ...  
فتلقى كلماتها ساكناً وهو ينظر إليها نظرة  
المحروم ، أو المطرود من دار حلو ليس له حق المعارضة  
في طرده منها

وعادت المرأة تقول وقد شاعت في وجهها فرحة :  
— وسوف آتي في القريب برجل آخر من  
نوع آخر أبوه مكانك ...

وظهر على الرجل أنه يكاد يبكي ، ولكنه تماسك  
واستطاع أن يبدد ما ظهر عليه ..

وهكذا تخلصت من رجل بمن تتخذه أزواجاً  
أو بالمعنى الصحيح أشباه أزواج ..

وبعد أيام قيل لي إنها اتخذت زوجاً جديداً ،  
وقد رأته ... وكان فتى ما يزال أخضر الشارب ،

عن طيشها وتصرفاتها وأعمالها فصماً غريبة .  
وأرى من هذا الطيش وهذه التصرفات والأعمال  
أيضاً الشيء الكثير الغريب ...

قيل لي ذات يوم إنها شربت زجاجة خمر من  
زجاجات البحر الرخيصة التي يبيها « ديمتري »  
في دكانه الصغير بالقرب التي كنت أعيش بها وتعيش  
بها ، فلما ذهبت البحر بوعها انطلقت في دروب  
القرية وطرقاتها سكرى تفوح من فيها رائحة البحر ،  
وراحت تصيح بصوت ثمل وهي تضحك ضحكات  
فارغة عالية مدوية :

— هكذا يجب أن تكون الحياة : خمر وطرب ..  
ثم ذهبت نسب من كانوا في طريقها من الناس ،  
فاجتمع حولها الصبية وطفقوا يقذفونها بالطوب ،  
ويشتمونها بالتراب ، حتى لم تعد تحتمل عبثهم  
فسقطت على الأرض تصيح بكلام غير مفهوم ،  
ولم يرحمها الصبية عند هذا الحد بل ازداد تنكيلهم  
بها ، حتى خمدت حركتها واستكانت في رقبتها  
على الأرض تنظر إليهم بعين ابتدأت تنم وتغهم  
وتتالم ...

ولم تستطع للمود إلى يتيها في ذلك اليوم  
إلا بمساعدة بعض للناس ...

ورأيت أنا بعيني مناظر كثيرة لهذه المرأة وهي  
تهان على هذه الصورة عقب شربها للخمر وتسلط  
شيطان البحر على عقلها .

وكانت لم يكفها ما أصابها من جنون ورائي ،  
فأصيبت أيضاً بجنون البحر وهو شر جنون .

ولا أعرف لم لم تنقل هذه المسكينة إلى المارستان  
ولل سبب في ذلك هو بعدها عن عيون من في  
استطاعتهم نقلها إليه ، وعدم وصول أخبارها إلى

قلت : أوافق أنها تحبك ؟

قال : هذا ما يبدو لي ...

قلت : وماذا ترى في ذلك ؟

قال : لا شيء . لقد قلت لك إنها امرأة مجنونة .

ثم سمعت لحظة وأردف ضاحكا :

— دعني أحدثك عن حادث محبب ، أو قل

مضحك جرى لي معها منذ أيام ...

قلت على الفور : هات ما عندك . أسرع

فراح يحدثني :

— كنت مضطجعا على أريكة في إحدى غرف

منزلي لأستريح بعد أن قضيت يوما كله عمل وكد

ونجاة انفتح باب الغرفة ، ودخلت على تلك المرأة

تترنخ ثملة ورائحة الخمر تنبعث من فيها ، وحينما رأته

اندفعت تجري إلي ، ومالت على تدي من فمي جيبتها

الفضن الكريه وهي تقنن في صوت لاهت ثمل مثلها :

« هيا قبلني أيها الحبيب ، على جيبتي هنا ، فاني

أخاف أن تأنف من تقبيلي في فمي الذي لوثنه الخمر

هيا فقد تشاجرت بسبب هذه القبله مع الشرطي

الذي يقوم على خدمتك ، حينما أراد مني من القدوم

إليك ، واضطرت في آخر الأمر إلى حبسه في

« المطبخ » وإغلاق بابه عليه بالفتاح ، هيا ولا تدعني

أنتظر فان قواي تتلاشي من التنب الذي سببه لي هذا

الشرطي المنيد »

وكانت رائحة الخمر المنبعثة من فمها تضيق أنفاسي

وكان جيبتها بفضونه وقذارة شكله يثير في نفسي

الاشمئزاز ؛ فاستجمعت قواي ودفعتها بيدي بمبدأ

عني ، دفعتها دفعة قوية أسقطتها على الأرض كما

تسقط القطعة الكبيرة من الخشب ، وارتطم رأسها

بالبلاط فحيل إلى أنه تحطم ، وسمعت صرخة خفيفة

صديد القامة في امتلاء ، على كثير من الرسامة وإن

كانت تقاطيع وجهه تنبئ بنفس شريرة أثيمة

وتثبتت أخبار حياتها مع هذا الفتى مدة ما ،

ثم شغلني شواغل الحياة عن ذلك بضعة أشهر قبل لي

بمدها إنها تركته وإنها تبحث لها عن رجل آخر

جديد ، ويشاء الله أن يوقها في الحب فتتسلى البحث

عن هذا الرجل ...

ولم أصدق في أول الأمر أنها وقعت في شرك

الحب ، ولكن الدلائل على ذلك كانت كثيرة

فصدقت . ولقد يكون غريباً أن تحب امرأة كذلك ،

والواقع أنني لا أزال أحب من هذا إلى الآن ...

ومن أحببت ؟ ... أحببت ضابط ( نقطة ) للقرية

الذي طالما أتى بها في سجن « المركز » والذي طالما

أمر عسكره بجلدها لانطلاقها في الطرقات سكرى .

لكننا لم تدع هذه المرأة شيئاً غريباً شاذاً دون

أن تأخذ منه بقسط

وبدأت أهتم بالمرأة وبأخبار حبها ، وكثيراً

ما كان يرسم في مخيلتي قلب امرأة في الأربعين من

عمرها وقد عادت تجري فيه دماء الحياة والشباب

والحب بعد أن شاخ وهمم ، فأقول لنفسى إن الله

قادر على كل شيء يحى المظالم وهي رميم

وانقضت على هذا الحب تسعة أسابيع ، وزرت

ضابط « نقطة » القرية ، وكانت لي به معرفة ازدادت

أخيراً ، ورأيت أن أحدث معه في أمر تلك المرأة

المجيبة التي تحبه ، فقلت له :

— هل أنك نبأ تلك المرأة التي تحبك ؟

ففهم على الفور أى امرأة أعني ، وتبسم وهو يقول :

— طبعاً . ولكنى أحب كيف أحبني هذه

المرأة المجنونة ...

— ابنتي ماتت .. أوه! لقد كدت أنسى هذه  
البنت المسكينة ...

وسقطت قطرة من دموعها بين شفتيها فمسحتها  
بأصبعها في سهوم وشروود ، ثم تكافت الابتسام  
وهي تقول :

— ولكن لا داعي للحزن ... فكلنا سنموت .  
وكنت مع بضعة نفر من أهل القرية التفتوا  
حولها قد عمنا الوجوم والاصمت ، فنظرت إلينا  
وهي تضحك في اضطراب وأردفت قائلة :

— لماذا صمتكم ووجومكم هذا ؟ هيا عودوا  
إلى حالتكم التي كنتم عليها قبل الآن « فرشوا » .  
ابتسموا ، أبولكم منظر أم ماتت ابنتها ؟ ...

وظفقت تضحك ضحكات كأنها العويل والنواح  
فلما وجدتنا لم تغير من حالنا انقطعت عن الضحك  
بجأة ونظرت إلينا في دهش ، ثم في ابتئاس ، ثم  
في ... ثم نظرت إلينا نظرة لم أفهم لها معنى ،  
وتركتنا في خطوة متعثرة دافئة وجهها بين راحتها  
تنتحب ... !

محال أن تزيل يد النسيان من ذهني هذه اللحظات  
ومحال أن تسلبني منظر تلك المرأة فيها<sup>(١)</sup> محال  
ومن ذلك اليوم ابتدأت أسمع تلك المرأة وهي  
تغني ذلك الموال الذي يقول مطلعته :

« يا عم ياللي بلا خال تمال اعملك خالي »

« واحط قلبي الملان على قلبك الخالي »

وكانت تشرب الخمر حتى تتأبل سكرأ ، وتتطلق  
في طرقات القرية تغنيه بصوت مضطرب ينص  
بالحزن والبكاء ، وكان للصبية ينطلقون خلفها في  
كثير من الأحيان يرمونها بالطوب ، ويحتفنون

(١) أسمى منظرها في تلك اللحظات

النسابت من بين شفتيها كأنها عويل مخنوق ، ثم ...  
ثم نهضت وتركت الأريكة والغضب يأخذ مني كل  
مأخذ ، فرأيته تنظر إلى في عتاب رحيم وتقول :  
« في سبيلك أيها الحبيب » ولم تلفظ بغير هذه  
الكلمات ، وخرجت فأطلقت الشرطي المسجون  
في « المطبخ » وطلبت منه أن يذهب فيحملها ويأق  
بها خارج المنزل . وقد كان

وصمت الضابط وهو يخرج من عتبة دكانه  
دخينة وضما بين شفتيه وتغم :

— لقد قلت لك إن هذه المرأة مجنونة ...  
وأشمل الدخينة وراح يدخنها في صمت ،  
واستأذنته في مبارحته ، ثم انطلقت إلى الطريق  
وأنا أشمر بقلبي قد امتلأ شجناً

ولم تفارق مخيلتي في ذلك اليوم وليله ، سورة  
امرأة في الأربعين سكرى ملقاة على أرض إحدى  
غرف منزل تنظر في عتاب رحيم للرجل الذي أهانها  
بالقائه لها هكذا على أرض الغرفة ... الرجل الذي  
تحبه ولا يحبها ، وتهتف قائلة له « في سبيل حبك  
أيها الحبيب ! »

\*\*\*

وكانت الأيام تضي وأنا أرقب عن كثب تلك  
المرأة المجيبة واهتمامي بأمرها يتضاعف ويتضاعف  
في كل يوم وفي كل ساعة ، وكنت معها ذات يوم  
عند ما أنماها نبأ موت ابنتها زيلة البيارستان ، أبدأ  
لن أنسى ما بدا على وجهها وما لاح في عينيها وقتذاك ،  
لقد لاحت في عينيها نظرة حائرة تأهبة ، وبدت على  
وجهها جهامة وانقباضة وتفكير ، وظلت على ذلك  
بضع دقائق ، ثم نندت عيناها بالدموع وهتفت  
في خفوت :

— لقد خيل إلي في نومي أنه أت لي مودني ...  
 ألا ما أقساه من حبيب ...  
 وتلايلات في عينها دمة ...  
 وبعد لحظة التفتت إلي تسألني :  
 — هل قابلت ضابط « النقطة » منذ قريب ؟  
 قلت : أجل ...  
 فسألني في إصرار وهي تكاد تذوب شوقاً ولحفة :  
 — وكيف حاله ؟  
 قلت : كما هو ...  
 فأغمضت عينيها وظهر عليها أنها تستعيد شيئاً  
 حلواً ، ثم عادت ففتحتهما والتفتت إلي قائلة :  
 — هل رأيت في هذه الدنيا امرأة أشق مني ؟  
 فنظرت إليها طويلاً ... ولكنني لم أجبها ...  
 وتصمرت أيام . وفوجئت بخبر يقول إن ضابط  
 « نقطة » قريبنا سينقل بعد يوم إلى « نقطة » أخرى  
 في بلد بعيد ، وكانت حجة مريضتي قد ساءت وتدهورت  
 فحاولت بكل ما وسعني أن أمنع هذا الخبر من الوصول  
 إلى أذنها حتى لا يصيبها بشر جديد ، ولكن رجلاً  
 ممن عادوها تدفهم للشفقة أوجب الاستطلاع أوصله  
 إليها دون أن أعلم ، فلما اختلت بي بعد ذلك وكنا  
 في الصباح قالت لي وصوتها يرتعش :  
 — سوف أذهب في الساء لأودع ضابط  
 « النقطة » فقد علمت أنه سينقل إلى بلد آخر غير  
 هذا البلد . فهل تستطيع مرافقتي إلى منزله ...  
 قلت وأنا أعجب لها في نفسي وأخفي عجيبي  
 — إنك الآن في أسوأ حالات المرض ، فلا  
 ينبغي أن تكافئ نفسك مشقة ...  
 — وهل تحسبني أستطيع تركه يذهب دون  
 أن أودعه !

الغراب يلقونه عليها ، وكثيراً ما أنقذها للناس ولهوم  
 يكاد يقضي عليها ...  
 مسكينة ... لقد كانت تمشي بقلب جريح ،  
 وهقل مجنون ... كانت فريسة لحب يأس وجنون  
 أليم ، وحزن تملكها بعد موت ابنتها . وعينها حاولت  
 أن تجد ذلك الرجل الذي لا « خال » له لتضع على  
 قلبه « الخالي » قلبها المملوء بالآلام والأشجان !

\*\*\*

وانتابت البائسة في يوم من الأيام حتى شديدة  
 نفرت على فرائشها تمانى آلام هذه الحبي فوق  
 ما تمانيه من آلام قلبها وعقلها ، ولتفتت حولها  
 تبحث ممن يقوم على خدمتها في محنتها الأخيرة هذه  
 فلم تجد أحداً سواي ، كان كل الناس قد هربوا منها  
 إلا إياي ، فلقد كنت أعطف عليها وأرني لها فلم أشأ  
 أن أتركها تقاسي ألم المرض وحدها ؛ ونظرت إلي  
 وهي تقول :

— ولكني أسأت إليك من قبل يا سيدي  
 فقلت : ما فات مات ...

وكانت لي صلة بطبيب بقيم في « المركز » الذي  
 تنبئه قريبنا فاستقدمته ليشرف على علاجها ، وأثر  
 في المرأة هذا المطف والاهتمام ، فراحت تدعو لي  
 بالسعادة وراحة البال وطول العمر

وقد خف جنونها في أيام هذا المرض ، ولكنها  
 في أحيان كثيرة كانت نحن إلى الخمر فلا أستطيع  
 منعها من شربها ، وفي ذات مرة أخذتها سنة من  
 النوم وأنا بجوارها ، فسمعتها تهتف باسم ضابط  
 « نقطة » القربة ، وأثر في ذلك فاستمبرت وأنا أدنو  
 إلى وجهها للشاحب وأمر رأسي في أسي وإشفاق  
 ولما استيقظت نظرت حولها في دهشة وتبسمت  
 في كآبة وهي تتمتم :

طلبتها منه ، وأمسكت المرأة يده تضغط على أناملها  
في عصبية وهي تصيح  
— أنت ... أنت ...

وبعد حديث ووداع دام بضع دقائق غادرها  
الضابط ، وتددت على شفتها وهي تشبه إلى الباب  
يصرها الكليل بسمة فيها حزن ووداع وبكاء  
والتفتت إلى تقول بمد أن ذهب :

— إني لأصدق. بخيل إلى أنني كنت في حلم ...  
وفي اليوم التالي سافر ضابط «النقطة» إلى البلد  
البعيد الذي تقل إليه ، وبعد أيام من سفره ماتت  
المرأة المريضة للسكيرة المجنونة التي أحبته فلم تسعد  
بحبها إلا مرة واحدة ، فودعت بموتها امرأة محببة ،  
مرت بحياتي كما يمر بخيال النائم حلم عجيب !  
عبد الحلیم محمود العشري

— سوف آتي به إلى هنا فتودعينه وأنت على  
فراشك ...

فم وجهها الفرح وصاحت وهي لا تصدق  
ما أقوله :

— أو يقبل المحي إلى هنا ؟  
فطأ نثها ... وأكدت لها أنني سأحمله على الحضور  
إليها ، وذهبت فرجوت للضابط أن يأتي من إليها ،  
وقد رق لها قلبه بمد أن وصفت له حالها ، فأجاب  
رجائي ورافقني إليها

وحينما دخل عليها كادت المسكينة تموت من  
الفرح ، واغرورت عيناها بالدموع وهي تنظر إليه  
غير مصدقة أنه هو حقاً ...

ورق لها قلب الضابط أكثر ، فامحى عليها بضع  
على جبينها قبلة ... القبلة التي أهانها من قبل حينما

## بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي

عاماره ... وعاملوا شرفه ... تنكبوا ... التصر ليهوركم